من تراب الطريق

(٣٩١) احترام الموت !(*)

ما من إنسان إلاّ ويخشى الموت ، ويخاف لحظة النهاية ، ويعمل لها ألف حساب .. إن شغلته الدنيا وحظوظها أو همومها عن الموت ، لفته إليه رحيل الأحباب ، أو ذكّرته به صفحة الوفيات ، فإن هرب منها استدعاه الخطاب الدينى بما يحمله من نذير إلى جوار البشارة .. فإن رزق نعمة العقل والتأمل ، وجد الموت رفيقًا حاضرًا يعظه بما تعجز عنه الكتب والحادثات .. شخصيا صدمنى الموت برحيل الأحباب .. الأب والأم والأخ والأخت .. والعم والخال .. وأولاد العمومة والخؤولة .. فضلا عن قطار الأصدقاء الذى يتوالى بين فترة وأخرى فراق واحدٍ منه ، إن لم يكن بالموت ، فربما بالجحود أو النكران أو الخيانة .. وهى أنواع من الفراق يغدو الموت أرفق بنا منها ، لأنه على الأقل لا يحرمنا من أنس الذكرى ويحفظ لنا صفحات الذكريات معطرة بما تخللها من أريج المحبَة والإخلاص والوفاء ..

تعلمت أنه لابد من التسليم بما ليس منه بد ، وجعلت أحاول استقبال الموت بما يجب من التسليم ما دام هو نهاية كل حىّ ، بل ومنه تولد الحياة .. ومع ذلك يبقى الخوف من المجهول ناشبًا يظهر من وقت لآخر فى

(*) المال١٨/ ١/ ٢٠١٠

حنايا القلب الواجف الذى لا تغرّه الدنيا مهما علا صخبها عن انتظار لحظة الرحيل .. ربما ساهمت أحوال المدافن المصرية المبعثرة فى أطراف القرى أو بين أحياء المدن فى إضفاء المزيد من الرهبة .. تعلمت بالمحاهدة ورياضة النفس أن أزيلها بإحلال الرضا والتسليم محلها .. وهيىء لى أن أبنى مدفنًا ـ وقد فعلت ـ يسهم برواء مبناه ـ على خلاف ما اعتدناه ! ـ فى إزالة أو تخفيف هذا الحاجز النفسى الذى يفصل بيننا وبين الموت ومفارقة الحياة الدنيا إلى غير رجعة .. ظللت أتابع البناء الذى شد كثيرين من رواد المقابر فى٦ أكتوبر ، وجعل بعض الأصدقاء الذين زاروه معى أو طالعوا صوره ـ يداعبوننى بأنه : «يردّ الروح» !

حضرت لحظة احتضار أبى رحمه الله رحمة واسعة ، وكان أول مشهد أراه للاحتضار ، فلفتنى فى جزعى الشديد أنه تلقى الموت فى رضًا وتسليم ، منتبها إلى أنه يموت ، يوصى أمّى فى الخفقة السابقة على صعود روحه إلى بارئها بعمتى التى كانت تعيش معنا منذ تنكر الزوج الذى أعطته عمرها ومالها ، فأبى والدى رحمه الله أن تعود إلى بيت أبيها ، فبقيت معنا أمًّا ثانية تعيش وأمى ـ رحمهما الله ـ متآخيتين متحابتين .. طالما عدت لأتأمل طويلًا فى لحظة هذا الاحتضار والسكينة التى رأيتها على وجه أبى ، وملامح ابتسامة رضًا وتسليم لم تفارق محياه .. أخذه الموت بالأزمة القلبية فى لحظة لم تسمح بما جرى عليه الناس من محاولة صدّ الموت وإعاقة سبيله بكل وسيلة وحيلة !

قرأت هذا الأسبوع للدكتور محمد المخزنجى مقالًا فى الشروق بعنوان «الحكمة قبل التحكيم فى طب المنصورة» . أريد أن أدخل معك مباشرة إلى الموضوع الذى فتحه الطبيب الأديب المفكر فى ثقة وعلم وإيمان ، أن ما يشغله هو تأليف مرجع يكاد يكون فريضة غائبة فى دراسة وممارسة الطب فى مصر ، ويتعلق بموضوع العناية الجسدية والنفسية والروحية بالمرضى فى المراحل المتأخرة التى تتضمن الاحتضار والموت ، بالإضافة إلى دعم المحيطين بهم فى مواجهة المشاق النفسية والبدنية فى هذه الرحلة الأليمة ..

رأيت شيئا كثيرا من هذا فيما سبق رحيل شقيقتى ـ يرحمها الله ـ التى فارقت دنيانا فى أكتوبر الماضى بعد رحلة قاربت عامين .. عانت فيها وعانينا كلنا معها ـ تغول السرطان وخبث حركته المدمرة المتنقلة بين أعضاء وأحشاء البدن ، وتعلقنا ونحن نخفى عنها حقيقة ما بها ـ تعلقنا بالأمل وبلطف ورحمة الله ، كانت شهورا عصيبة عانتها جاهدنا معها فيها وقاومنا استشراء المرض الخبيث بكل السبل .. لم يكن ذلك معاندة لإرادة الله ، وإنما تخفيفًا بقدر ما يمنحه الطب من علاج .. لكن هذا العلاج الطبيعى شىء ، والإجراءات الطبية التى يصفها الدكتور المخزنجى «بالمتعسفة» ـ شىء آخر .. إن الموت هو خادم للحياة فى توالى أجيالها ، ونحن أحيانا ـ فيما أَبْدَى فى مقاله الرائع ـ نمعن فى إذلال الحياة بوسائل متعسفة نتصور أنها تدافع عن الحياة وتوقف زحف الموت الذى حان أوانه .. يروى لنا الدكتور المخزنجى تجربة شخصية له مع أمه احترم فيها جلال الاحتضار حتى وافتها المنيّة مقرونة بالراحة والسكينة ، ويتوقف فى المقابل عاتبًا على الإجراءات المؤلمة التى تلقاها الأستاذ نجيب

محفوظ تحت عنوان مقاومة الجوع ومضاعفاته بعد أن عاف الرجل الطعام والشراب ، ودخل مرحلةً نورانية يضيق فيها بما يُفرض عليه من أوجاع جلسات التدليك العنيف وهو يصيح بممرضيه : «أرجوكم سيبونى بقى .. انتو بتعملوا فىّ كده ليه ؟!» .

لا يعترض الدكتور المخزنجى على العناية بل والعناية الفائقة بالمريض . وإنما أراد أن يقول إن الوسائل الميكانيكية تكاد تكون بلا معنى ولا فائدة لروحٍ نورانية أعلنت أنها أكملت حياة الحب التى عاشتها بـ «حب الموت» الذى أشرفت عليه بلا رفض أو معاندة !.. تطبيب الاحتضار واحترام الموت ، ليس أقل أهمية من تطبيب الحياة .. وهذا يستحضر وجوب الالتفات إلى معرفة كيف يموت الناس فى كل حالة مرضية بعينها ، ووضع بروتوكول طبى وخبرة فى متناول المتخصصين والمحيطين ـ تقى المحتضر من عذاب لا مبرّر ولا معنى له ، ويمنحه مساحة سلام تتيح له الإحساس بمحبة من يحبهم ويحبونه ، وتؤهله لوداع الدنيا فى ارتياح ورضًا وتسليم .. هكذا أحب أنا أن أفارق حين تحين ساعتى ، لا أرهق الجسد ، ولا أرهق من حولى بمعاندة سنن الحياة ، فجلال الموت يقتضى أن نقدم بين يديه الاحترام ، وأن نتقبله راضين بأكثر مما أقبلنا على الحياة الدنيا .. قد شاءت حكمة الله تعالى أن يجعل الموت ابتلاءً واختبارًا كما جعل الحياة امتحانا ، بل ذكر الموت قبل أن يذكر الحياة ، فيقول الوارث الباقى فى قرآنه المبين : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١، ٢] .